

بسم الله الرحمن الرحيم

شعيب - عليه السلام -

٢٢/٨/٢٧هـ

الشيخ/ ناصر بن محمد الأحمد

إن الحمد لله...

أما بعد:

أيها المسلمون، قال الله - عز وجل - في كتابه العزيز - مما قص علينا من قصة شعيب - عليه السلام - ما جاء في سورة الأعراف: **{وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنَّ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ}** [سورة الأعراف: ٨٥-٩٣].

شعيب - عليه السلام - كان يسمى خطيب الأنبياء؛ لفصاحته وبلاغته وحسن تأديته، وهو أحد أربعة أنبياء عرب وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد - صلى الله عليهم جميعاً - أرسله الله - عز وجل - إلى أهل مدين، وأهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، وتقع مدين في ممر قوافل التجارة، وكان هذا الموقع يعطيها أهمية كبيرة ويميزها عن غيرها من المدن القريبة منها.

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة - وهي شجرة من الأيك حولها غيظة ملتفة بها - وكانوا من أسوأ الناس معاملة؛ يبخسون المكيال والميزان ويطفون فيهما - يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص - فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو رسول الله شعيب - عليه السلام -، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرفاتهم، وحذرهم عاقبة الظلم، مؤكداً لهم أن ما يبقى من المال الحلال خير لهم من المال الذي يجمعونه من الحرام: **{وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا**

تَبَخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ { (٨٤-٨٦) سورة هود}.

ومن ضلال أهل مدين أيضاً أنهم كانوا يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب؛ ليصدوهم عن سبيل الله، وكانوا يعيبون رسالته ويهددون المؤمنين، فكان شعيب -عليه السلام- يستنكر منهم ذلك ويذكرهم بأن الله كثّرهم بعد قلة، وأغناهم بعد فقر: **{وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَانْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}** { (٨٦) سورة الأعراف}.

ومن صور انحرافهم أيضاً: الاستهزاء؛ فقد كان القوم يستهزئون بكلام شعيب -عليه السلام-، وكانوا يقولون له: هل صلاتك هذه التي تصلّيها هي التي أثرت في نفسك فجعلتك مرشداً لنا؟ تدعوننا إلى ترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام، وتحثنا على الامتناع عن التصرف في أموالنا كما نريد: **{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}** { (٨٧) سورة هود}.

إن أثر الصلاة كانت واضحة في شعيب -عليه السلام- وقد لاحظ قوم شعيب تأثير الصلاة عليه وعلى أتباعه، وكيف أنها غيرت أوضاعهم، وأدت بهم إلى التحرر من عبادة غير الله، وترك الغش في المكايل والأوزان.

نعم، لقد غيرت الصلاة نفسية أتباع شعيب؛ لأن الصلاة تهدف إلى صنع ضمير نقي في الإنسان، فتحرك فيه مشاعر التقوى والمراقبة، وتذكره على الدوام بيوم القيامة: **{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}** { (٣٠) سورة آل عمران}.

وقد أثرت الصلاة في شعيب وأتباعه وجعلتهم يذكرون على مجتمعهم أفعالهم؛ لأنهم كانوا يصلون الصلاة الحقيقية كما أرادها الله عز وجل.

والذي يجعلنا نحن لا ننكر على من حولنا ما نراه من فساد سلوكهم؛ ما هو إلا لأن صلاتنا -نسأل الله السلامة والعافية- حركات خالية من الخشوع والطمأنينة، صلاة جوفاء، النقص والخلل فيها كثير، ولهذا تجدهم لا ينتهون عن معاصيهم والله -عز وجل- يقول: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}** { (٤٥) سورة العنكبوت}.

فكم نحن في حاجة إلى هذه الصلاة التي بها يتوجه الإنسان إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فيتحرر من كل المعبودات الباطلة، ومن كل فساد استشرى وصعب علاجه.

كم نحن في حاجة إلى الصلاة التي تعصمنا من الخطايا وتنهانا عن الفحشاء، وتقلنا من هذا العالم المائج بالفتن والأوزار إلى رحاب الله.

أيها المسلمون، لقد بدأ شعيب -عليه السلام- بما بدأ به إخوانه من الأنبياء: **{يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}** { (٨٤) سورة هود}، وربط مشكلات عصره بالعبودية: **{يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا**

تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ { (٨٤) سورة هود}، وعن غير هذا الطريق لا يكون هناك إصلاح ولا عدل ولا مساواة بين الناس.

ومثل هذه المسألة ينكرها العلمانيون ومن سار على نهجهم، فيتساءل العلمانيون: ما علاقة الصلاة والصيام وعبادة الله بغلاء الأسعار والاحتكار والبطالة والرشوة؟!

إن الذين حُرِّموا نعمة الإيمان يفكرون بمثل هذه الأفكار، ويرون بأنهم قادرين على تحقيق العدالة الاجتماعية بما يمارسونه من قوانين ومبادئ لا علاقة لها بالإيمان والإسلام، وربما نجح بعضهم في حل مشكلة غلاء الأسعار حيناً من الزمن، ولكن هذا النجاح يكون على حساب أمور أخرى تعد أشد خطراً وأكثر ظلماً من غلاء الأسعار، كالاتياد والبطش والإرهاب.

ماذا كان جواب نبي الله شعيب -عليه السلام- عندما قال له قوم: **{يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}** { (٨٧) سورة هود}.

رد عليهم شعيب -عليه السلام-: **{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ* وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}** { (٨٨-٩٠) سورة هود}.

نقف قليلاً عند قول شعيب -عليه السلام- في قول الله -عز وجل-: **{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}**: يؤكد شعيب -عليه السلام- لقومه أنه لا يفعل ما ينهاهم عنه، فهنا درس عظيم للمصلحين والمربين والآباء، والدعاة والوعاظ، بأن يراعي كل منهم سلوكه أشد المراعاة، كل كلمة وتصرف يصدر منه؛ فالسلوك يؤثر أكثر من الكلمات، فمهما صدر من المصلح من حكم ومواعظ بليغة تستهوي العقول فلن يكون لها الأثر الفعّال في نفوس مستمعيها إذا لم يكن قائلها هو أول العاملين بمضمونها، وأول المؤتمرين بأوامرها ونواهيها، ولهذا نجد أن الله -عز وجل- ذم قوماً أمروا الناس بالبر ولم يلزموا أنفسهم به، فقال تعالى: **{اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}** { (٤٤) سورة البقرة}، وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** { (٣-٢) سورة الصف}.

فلننتبه لهذا الأمر -سواء كنت أباً في بيت، أو مصلحاً وداعية في مجتمعك- بالأل يصدر منك أفعال تخالف أقوالك؛ لأن الناس يتأثرون بالقوة أكثر من غيرها، خصوصاً الآباء.

فإذا كنت تريد أيها الأب من ولدك ألا يدخن -مثلاً- فلا تكن من متعاطيه أمامه، وإذا كنت تريد من ولدك ألا يكذب، فنتبه ألا يصدر منك ذلك ولو عن طريق المزاح، وإذا كنت تريد من ولدك أن يكون محافظاً على وقته مجدداً في دروسه، فلا يرى أباه من الذين يسمرون ويلهون إلى آخر الليل؛ لأنه من الطبيعي أن يتأثر الولد بوالده.

ماذا لو كان هذا الأب من الذين لا يستحقون أن يُقتدى بهم، فماذا نتمنى بعد ذلك من أولادنا، فهل لنا من عبرة

وعظة من نبي الله شعيب - عليه السلام - في قول الله - عز وجل - : **{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ}** [(٨٨) سورة هود].

وأما الشطر الثاني من الآية: **{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}** [(٨٨) سورة هود]، ففيها درس آخر للدعاة والمصلحين في أن تكون رغبتهم في الإصلاح لوجه الله، بعيدة عن أي غرض دنيوي أو منفعة ذاتية، وهكذا كانت أهداف الأنبياء في مراحل التاريخ، وهذا ما جعل الفوز حليفها، وهذه هي الطريق التي يجب أن يسلكها المصلح والداعية؛ ليصل إلى النجاح.

فالإصلاح المجرد من أي غاية وهوى النفس هو الذي يكتب له في النهاية النجاح والفوز؛ لأن ذلك هو رسالة الحق، والحق دائماً هو المنتصر، وأما الغايات والأهواء الخاصة فكثيراً ما تفضح نفسها فتكفيء ويكون الخسران مآلها.

وكيف لا تنتصر الحقيقة وهي التي مصدرها خالق الكون ومدبره، وهذا ما أشارت إليه الآية في ختامها: **{وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ}** [(٨٨) سورة هود].

أيها المسلمون، لنرجع إلى القصة: هدد أكابر القوم شعيباً - عليه السلام - بإخراجه ومن آمن معه من القرية أو أن يعودوا في ملة القوم، فكان رد شعيب - عليه السلام - واضحاً لا لبس فيه: **{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}** [(٨٨) - ٨٩] سورة الأعراف.

وعاد قومه يهددونه بالرجم، وأنهم لم يمنعهم من ذلك حتى الآن إلا مجاملة عشيرته، وهو ليس ذا عزة ومنعة تحول بينهم وبين أن يقتلوه، وإنما هي المجاملة وحدها: **{قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ رِءَاكُمُ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}** [(٩١-٩٢) سورة هود].

عند ذلك جاء الأمر الإلهي بهلاك أهل مدين، جزاء عصيانهم، فنجى الله شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه - سبحانه وتعالى - وأهلك الذين كفروا فأخذتهم صاعقة شديدة، صاحبها زلزلة قوية، جعلتهم منكبين على وجوههم صرعى، وانتهى أمرهم، وزالت آثارهم حتى كأنهم لم يقيموا في ديارهم، قال الله تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِاثِمِينَ * كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}** [(٩٤-٩٥) سورة هود]، وعوقبوا أيضاً بالظلة.

وأهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة الذين ذكرهم الله - جل وتعالى - في كتابه كما حقق ذلك الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: فسلط عليهم - أيضاً إضافة إلى ما سبق من العذاب - حراً شديداً ضاقت به أنفاسهم، فخرجوا إلى البرية؛ لعلمهم يستروحون هواءً بدل الذي هم فيه، فأرسل الله عليهم سحابة أظلتهم، وهو الذي سماه الله في كتابه بيوم الظلة، فاستبشروا خيراً من هذه السحابة واجتمعوا تحتها؛ ليستظلوا بظلها فراحت

ترميهم بشهب وصواعق حتى أهلكتهم وكان يوماً شديداً العذاب شديد الهول: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ* وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ* وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ* وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى* قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ* وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ* فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ* فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء: (١٧٦-١٩١)].

رأى شعيب -عليه السلام- ما نزل بقومه من العذاب والهلاك، فأعرض عنهم وقال: {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ} [سورة الأعراف: (٩٣)].

أيها المسلمون، من التوجيهات المهمة التي تطالعنا بها قصة شعيب: الدعوة إلى الأمانة والاستقامة في البيع والشراء، وترك الغش بالمكاييل والأوزان والإفساد في الأرض؛ لأن ذلك يؤدي إلى سخط الله، والتعرض إلى العقوبة الشديدة كما فعل الله بقوم شعيب الذين أهلكهم جزاء فسادهم.

أما حذر شعيب قومه بقوله: {وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاقِمُ بَخِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [سورة هود: (٨٤-٨٥)].

إن أكثر الدول المتقدمة تحرص أشد الحرص على ضبط المكاييل والأوزان ومراقبة السوق، وتعرض المتلاعب للعقوبة الشديدة، والإسلام كان له السبق دائماً في إقرار الأنظمة الصالحة للمجتمعات البشرية. إن مسألة المكيال والميزان، والبيع والشراء، مسألة تستحق الوقوف عندها؛ لأنها قضية لا تتعلق بالبائع والمشتري وحدهم، بل إن آثارها لتعود على المجتمع كله؛ فإن أي مجتمع لا يُوفى فيها المكيال والميزان ولا يلتزم كل من البائع والمشتري بأحكام الله -عز وجل- فإن المجتمع كله مهدد بالخطر وعقوبة الله تعالى، كما سمعتم ما حصل لقوم شعيب عندما لم يوفوا المكيال والميزان. نفعني الله وإياكم بهدي....

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه...

أما بعد:

أيها المسلمون، واجه شعيب -عليه السلام- قومه بانحرافاتهم كلها دون خوف أو ضعف، وانحرافات قومه كانت لها صور وأشكال متعددة من عبادة غير الله من الأصنام والأوثان والأهواء وغيرها من الآلهة، إلى سوء المعاملة في البيع والشراء وبخس الناس أشياءهم، إضافة إلى الفساد في الأرض بكل ما تعنيه كلمة فساد من ظلم وبغي وعدوان على الأنفس والأعراض والأموال، ناهيك عن الصد عن سبيل الله، حيث كانوا

يجلسون في الطرقات ويحذرون المارة من شعيب، ويتوعدون المؤمنين ويتهددونهم، وشعيب -عليه السلام- كان حكيماً عاقلاً، وكان يعرف العقلية التي يفكر بها الملائكة من قومه، وكان يعلم أن ما يدعو إليه يعني سقوط النظام الفاسد، وكان يعلم بأن مواجهة الملائكة بوحدة من هذه الانحرافات كاف لتأليب الرأي العام ضده، والسعي الجاد لنفيه من مدين أو قتله، ومع كل هذه الأخطار المتوقعة فلقد كانت دعوة شعيب -عليه السلام- منذ بدايتها قوية شاملة ليس فيها هوان ولا تردد، ولا مجال فيها للمساومة وقبول أنصاف الحول وأرباعها. ولم يقل شعيب -عليه السلام- فعلت وسُعي وكفى، ولا بأس من مهادنة الملائكة طالما تركوني ومن آمن بدعوتي نعبد الله ولا نشرك به شيئاً فلهم دينهم ولي دين.

ولم يقل: كان من الأفضل مواجهتهم منذ بداية الدعوة بتطيف الكيل والميزان، فإن استجابوا واجهتهم بمشكلة أخرى، وبمثل هذه المرحلية أحقق فوائد أكثر، وتكون معارضتهم أخف وطأة وأقل حدة. ومواجهة شعيب -عليه السلام- لقومه بانحرافاتهم ليست رأياً شخصياً ارتآه، أو اجتهاداً اجتهدته، فهو عبد الله ورسوله وليس له من الأمر شيء.

إن هذه المواجهة أرادها الله -جل وعلا-، ونبى الله ينفذ أوامر ربه التي يأمره بتبليغها لعباده، وهي منهج رباني خالد، لا يعتريه غموض، ولا تكتنفه تناقضات، وبعد آلاف السنين ما زلنا نقرأ فقرات هذا المنهج في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وسار الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المجددون على هذا المنهج، فواجهوا أقوامهم بانحرافاتهم، فلقد حاول الصحابة وفي طليعتهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنهم- إقناع أبي بكر الصديق بعدم قتال المرتدين، وكان معظم أهل الجزيرة قد ارتدوا، فأبى الصديق -رضي الله عنه- وبين للصحابة أهمية الأدلة التي يعتمد عليها، وأكد أنه لا بد من مواجهة المرتدين بما يستحقون، وكان الحق مع أبي بكر، وأدرك الصحابة جميعاً صحة أدلة الصديق، فانعقد إجماعهم على وجوب قتال المرتدين ومن جملتهم الذين امتنعوا عن دفع الزكاة. وواجه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أهل الحل والعقد من بني أمية بأخطائهم وانحرافاتهم، فعزل الولاة والقادة الظالمين، ورد المظالم إلى أصحابها، ومنع سياسة التبذير والترف، وكان يعلم أنه سوف يصطدم مع أبناء عمومته وأقرب أقربائه ومع ذلك اختار ما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدون من بعده.

وواجه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل -رحمه الله- المأمون بانحرافاتة، ورفض السكوت عن إنكار المنكر، وآثر السجن والتعذيب والنفي والتهديد بالقتل، ولم يقبل ما قبله غيره من علماء عصره من الرخص، وكان -رحمه الله- وهو مكبل بالقيود في السجن -أقوى من المأمون وجيشه وقوات أمنه. لقد دحض -رحمه الله- أباطيلهم، وفند شبهاتهم، وأخيراً أخذ الله المأمون والمعتم والمؤثق وقادة أهل الاعتزال ونصر الله بالإمام أحمد السنة وقمع البدعة والمبتدعين.

وواجه صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- الراضة الباطنيين بانحرافاتهم؛ لقد كانوا عوناً للغزاة الصليبيين، ومعاول هدم داخل الصف الإسلامي، ودعاة فتنة وإرهاب، وحاولوا قتل صلاح الدين، ولكن الله نجاه ومكّنه

من قهرهم ومن القضاء على ممالكهم، ونجح صلاح الدين في تحرير القدس وما حولها، وهزم الصليبيين بعد أن هزم عملاءهم.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فواجه مشكلات وانحرافات كثيرة في عصره -التعصب المذهبي وتقديس الرجال- وواجه غلاة الصوفية، وواجه الرافضة وعموم الباطنيين كالدروز والنصيريين، وواجه أهل الاعتزال والفلاسفة، وواجه احتلال التتار لبلاد المسلمين، فلم يهادن -رحمه الله- جهة من الجهات المنحرفة، ولا تراجع عن حق يدعو إليه رغبة أو رهبة، وفضلاً عن ذلك كله لقد حقد عليه كثير من علماء عصره، وكثر حساده الذين كانوا يتسابقون في التزلف للسلطان، وكانوا لا يخجلون من الكذب عليه ورميه بما ليس فيه، وكان -رحمه الله- يشفق عليهم ويعفو عنهم عند الاستطاعة، وكان يترفع عن الصغائر، ويزهد في ملاذ الدنيا ونعيمها، ودخل السجن مرات ومات فيه، وكان يراه من نعم الله عليه، وحقق ابن تيمية انتصارات رائعة بسيفه مع التتار والباطنيين، وبقلمه مع أعداء الإسلام ومع أصحاب البدع والأهواء، وأعز الله به عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة.

وواجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- قومه بانحرافاتهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ كل ما يعبدون من دونه من أوثان وأصنام لا تضر ولا تنفع، ودعاهم أيضاً إلى التمسك بالكتاب والسنة، والبعد عن التعصب المذهبي الذميمة، فطاردوه واضطر إلى كثرة التنقل من مكان إلى آخر؛ خوفاً من بطش أعدائه، وأخرجوه من قريته، وحاولوا قتله أكثر من مرة، فما زاده كيدهم إلا ثباتاً على الحق واستمسكاً بالمنهج الذي يؤمن به ويدعو إليه، وبعد جهاد طويل يسر الله له من ينصره ويأويه، فكان -رحمه الله- من أكبر المجددين في عصره ونصر الله به الحق وأهلك خصومه.

أيها المسلمون، هذه نماذج فقط من سير من اقتفى أثر أنبياء الله ورسله من المجددين والمصلحين لقد كانوا جميعاً يواجهون أقوامهم بانحرافاتهم، وكانوا جميعاً ينطلقون من منهج واضح، وكانوا يقدمون لمجمعاتهم البديل الصحيح بكل حزم وشجاعة، ولسنا مخيرين في قبول هذا المنهج أو رفضه؛ لأن الله -جل وعلا- أنزله وأمرنا باتباعه ولا يشذ عنه إلا هالك.

اللهم رحمة اهد بها قلوبنا...